السماحة والعدالة فى الإسلام

قال بعض العماء: إن أكثر الاخلاق التى يصلح عليها الاجتماع، و ترتبط بها أسباب السعادة؛ يرجع إلى فضيلتين اثنتين، هما السماحة و العدالة.

فأما السماحة؛ و هذه كلمة حق؛ فإن الإنسان مخلوق لا يستغنى بنفسه، و لا يمكنه أن يتخلى عن ملابسة ما هو ميسر له، و لا أن يميت في نفسه نوازع الرغبة فيما زين له بمقتضى خلقه و تكوينه، من حب المال و البنين و الشهوات و الجاه و المناصب و نحو ذلك، ليتم ما أراده الله باستخلافه في الارض، من عمارتها و اثارتها و استنباط ما فيها، و استكشاف كنوزها، و تفجير مائها، و استنبات بذورها و أشجارها، حتى يبلغ الكتاب أجله، و لكل أجل كتاب.

لايستطيع الإنسان أن يتخلى عن ملابسة ذلك في صورة من الصور، أو طرف من الاطراف، و لو كان من أهل الزهادة، و من غلب عليهم التصوف، غير أن الناس في ذلك صنفان:

صنف يسلك سبيله الى هذه الوجوه من ضروريات الحياة أو كملياتها على نحو من البهيمية و لاغراق في المادية، و الحرص على استيفاء كل عنصر من العناصر التى تتطلبها الشهوة و الرغبة دون اكتراث بأى معنى من المعانى السامية، فتراه يسعى إلى تحقيق ما يريد بكل وسيلة، و يسلك اليه أى سبيل، و يحطم في سبيله كل ما يعترضه، و لا يعنيه الا أن يصل إلى مبتغاه، فاذا فاته شىء و لو يسير من آماله و ما رسم لنفسه، غضب لذلك غضبا شديدا و ظل يعالج، من الوجد و الحزن و الشعور بالشفاء ما هو كفيل بتنغيص حياته، و زلزلة صرح سعادته.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

و صنف يأخذ سبيله إلى هذه الوجوه هونا في غير تكالب و لا اغراق و لا نسيان لاشرف جانبى الإنسان روحه التى كان بها شبيها بعالم الملائكة، فتراه ينظر إلى الامال و الرغاب نظرة قاصدة فلا يجعلها هى الحياة كل الحياة، و لا يحسب فوتها الموت أو شراً من الموت، و لذلك يملكها و لا تملكه، و يسخرها و لا تسخره، و يرضاها ما رضيته، فاذا احتواه شيء منها لم يكن به ضنينا، و لا على استبقائه حريصا، ذلك أنه لم يتشبث به على أنه بضعة من حياته، أو عنصر من مقوّماته، ولكنه أخذه اخذ العوارى التى لا تلبث أن يستردها أصحابها، و هل في العقل أن يحزن المرء أو يجد مرارة اللوعة اذا استرد منه ما استعار إلى أجل محدود؟

هذان الصنفان على طرفي نقيض، و بينهما أوساط و درجات، و أساسهما السماحة و ضدها و إن اختلفت الاسماء في مواطن الاخلاق و الافعال، فإن كان ذلك في المال سمى سخاوة أو شحا، و ان كان في الشهوات سمى عفة أو شرهاً، و إن كان في موطن الاحتمال و المناضلة، سمى صبرا أو هلعا، و إن كان في مجال الطاعة أو العصيان سمى تقى أو فجورا، و هكذا.

فما الجود بالمال الا تصوير صادق لحالة نفسية في صاحبه نعلم منه أن المال لم يمتزج بروحه امتزاج شيئين اختلطا و تركبا، حتى يصعب انفصال أحدهما عن الآخر، ولكنهما اتصلا، و يسهل أن ينفصلا، فانفصالهما بيسر هو السماحة.

و صاحب الشهوة الذى ينصرف عنها التماسا لكمال نفسه، أو احتراما لبيئته و مجتمعه، أو نزولا على أمر ربه، انّما صدر في ذلك عن ملكة السماحة، لانه سمح بما يملك أن يمسك به، و لا ينزل عنه.

و ما الصبر الا علامة على أن ما فاتك من الخير، أو أصابك من الشر، لم يخرج عن نطاق ما تستطيعه، و تسمح به.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

و قل مثل هذا في أضداد هذه الاشياء، فالشح لا يصدر الا عن نفس كزّة

استعبدها المال، فهى لاتملكه حتى تسمح به، و الاستجابة إلى النزوات عبودية للشهوات، و الهلع و الجزع امارة على أن ما فاتك أو أصابك كان له في حسابك قيمة أغلى من نفسك و من صفو عيشك، فأنت تسمح بنفسك، و لا تسمح به، و تذهب في شأنه مذهب ذلك الشاعر الذى يقول:

و دعته و بودى لو يودعنى *** صفو الحياة و أنى لا أودعه

و في القرآن الكريم ما يدلنا على أن الاصل في الإنسان هو النزوع إلى ما ركب فيه من حب المال و الشهوات، و ان الله جعل لمن يقاوم ذلك من نفسه ثوابا عظيما، فهو جل جلاله يريد منا أن نتعود السماحة، فننزل راضين عما تدعونا اليه النفوس لنكسب رضاه، و نفوز بثوابه: ((زين للناس حب الشهوات من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضة و الخيل المسومة و الانعام و الحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا و الله عنده حسن المآب، قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها و أزواج مطهرة و رضوان من الله و الله بصير بالعباد)) .

* * *

و أما العدالة فهى أساس التوازن، و التوازن هو الشرط الذى لابد منه في صلاح كل شىء و استقامته، فمن كان يسره أن يعطى حقه فليؤد واجبه، و الا أخل بالتوازن في المجتمع إن نال ما يريد، لانه أخذ و لم يعط، و أنفق و لم يخلف، فإن

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

لم ينل بغيته أخل بالتوازن في نفسه، لانه يظل مألوما مكظوما ينعى سوء حظه، فلا يمضى في طريق الحياة الا بشق مائل.

و من كان يسره أن ينصف فلينصف، و أن يرحم فليرحم، و أن يعذر فليعذر، و أن تصان له حريته فليصن حرية غيره.

و اذا رأيت امرأ يعتد برأيه غاية الاعتداد، حتى لا يرى لاحد حقا في أن يخرج عليه، فاعلم أنه قد أخل بميزإن العدالة، ذلك بأن الله و حده هو الحكم العدل الذى لا يضل و لا ينسى، و لم يضمن ذلك لاحد من خلقه الا من عصم

فالناس في احتمال آرائهم للصواب و الخطا سواء، فمن أراد أن يفرض على الناس رأيا رآه، غير واضح أنه من الله أو ممن عصم الله فقد حاد عن سنن العدالة.

و من غش فقد جار، لانه استوفي الثمن، و لم يوف ما يقابله، و في التجارة غش و عدل، و في الحكم غش و عدل، و في العلم غش و عدل و بين الزوج و الزوجة كليهما غش و عدل، و بين الخادم و السيد كليهما غش و عدل و بين الابن و أبيه، و الخ و أخيه، و الصاحب و صاحبه، و الشيخ و مريديه، و الاستاذ و تلاميذه، و الجار و جيرانه، و المواطن و مواطنيه... الخ، كل أولئك أساس صلاحهم و سعادتهم العدالة، و سر فسادهم و شقاوتهم الغش و الظلم، و ما قامت السموات و الارض الا بالعدل، و لا استقرت الممالك و النظم الا بالعدل، و قد طلب الله إلى المؤمنين أن يكونوا ((قوامين بالقسط شهداء لله)) و أن يكونوا و قوامين لله شهداء بالقسط)) ولم يجعل القوامية لهذا غير القوامية لذاك، و لا الشهادة بهذا غير الشهادة بذاك، ليعلمنا سر تسميه جل جلاله باسم ((العدل)) .

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

* * *

إذن فضيلتان جامعتان، إليهما يرجع كثير امن العقل في صلاحية الفرد و الجماعة، و بهما – الى حد كبير – ترتبط أسباب الطمأنينة و السعادة، و هما لذلك من أول ما يدعو اليه الاسلام، ثم هما لذلك من أول ما يدعو اليه التقريب.

فالسماحة السماحة أيها المؤمنون ((و لا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى و اتقوا الله إن الله خبير بما تعملون

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com